

تجليات التناس في الشعر الصوفي المغربي

أ. مخلوفي صورية
جامعة سيدي بلعباس

ملخص:

سأحاول من خلال هذا المقال البحث عن قدرة الشعراء الصوفية على استنطاق النص المقتبس وإخراجه على شكل تراكيب لغوية، ضمن سياقات شعرية تتسق مع الأغراض والدوافع التي حفزت الشعراء الصوفية إلى هذه التناسات. سلطت الدراسات النقدية الحديثة الضوء على النص الشعري، فأخرجته من قوقعته وجعلته منفتحا على عوالم جديدة أدت به إلى التفاعل بين النصوص واستحضار التجارب الشعرية للآخرين، ثم دمجها في التجارب الفنية الخاصة، وهو ما سماه النقاد بالتناس.

ويعود المصطلح لغويا إلى أصل مادة نصص وإذ تتبعنا معناه في المعاجم العربية التراثية نجده يدل على الإظهار، فابن دريد (ت 321هـ) يقول: "نصصت الحديث أنصه نصا إذا أظهرته، ونصصت الحديث إذا عزوته إلى محدثك به"¹. ويرد في لسان العرب بمعنى الإتصال يقال: "هذه الفلاة تناصي أرض كذا أو تواصيها وتتصل بها"². أما المعاجم العربية الحديثة فقد ورد بمعنى الإزدحام، فقد جاء في المعجم الوسيط "تناص القوم: ازدحموا"³، فالمعنى يقترب من مفهوم التناسية فتداخل النصوص قريب جدا من ازدحامها في نص ما.

في الاصطلاح فهو منهج نقدي أطلق حديثا أريد به تقاطع النصوص وإقامة الحوار بينها، ووسيلة لإثراء النص بفتحه على نصوص أخرى، فقد عرفه عبد الله الغدامي: "بأنه نص يتسرب إلى داخل نص آخر، يجسد المدلولات سواء وعي الكاتب بذلك أم لم يع"⁴.

إذ أعطيت عدة تسميات لهذا المصطلح حيث أطلق عليه البعض تداخل النصوص، تضمين، تناسية، النصوصية. وظاهرة التناس بدت واضحة كل الوضوح في المعجم الشعري للشعراء الصوفية المغاربة، وهذا ما سنوضحه من خلال التناس القرآني والتناس الشعري والتاريخي.

1- التناس مع القرآن الكريم:

ألفاظ القرآن ومعانيه هي لبّ كلام العرب وزيدته، وعليها اعتمد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم عليه « فإن كان الناظر فيه من المتصرفين في علوم اللغة، غلب عليه ذلك فأخذ يحدد النظر في نظمه ومواقع الكلام فيه ترغيبا وترهيبا وشدة ولينا وإن كان من الفقهاء من نظر فيه من الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات، وإن كان من المتكلمة أصحاب نزعة الجدل والحجاج، شغلته الأدلة والبراهين، وليس الصوفية بدعاً من هؤلاء»⁵. فقد استلهموا منه ما يؤيد نظرتهم إلى الكون والحياة وإلى الذات الإلهية.

لشعراء الصوفية المغاربة ولع بالنص القرآني، فهم يستلهمون من مكوناته اللغوية والمعنوية والتصويرية والإيقاعية، ويعيدون إنتاجها في دواوينهم الشعرية. فالشعراء الصوفية « يستلهمون من لغة القرآن ما يفيد بناء الجملة الشعرية لفظاً، وإيقاعاً ويستوحون من معانيه ما يكسب المضامين أبعاداً إشارية منبثقة من سياق تلك المعاني، ويستعيدون القصة القرآنية بناءً وأحداثاً وشخصيات، ويحاولون مقايسة وقائعها ومقاصدها بما يحيط بهم في واقعهم أو ما يرونه مماثلاً لما يجري في القصص القرآني من ألوان الصراع بين المثل والفضائل والقيم النبيلة التي بُشِّر بها الأنبياء وهم يحملون ألوية النبوة التي تجاهد وتبني

وتحارب أهواء النفوس البشرية، واستبداد ميولها الشريرة»⁶. فكان شعر الشعراء الصوفية المغاربة «رحلة متواصلة من أجل المعرفة والكشف عن ماهية الوجود وبحثا دائما عن مصادر الانبعاث الروحي والوجداني»⁷.

والشعراء الصوفية المغاربة كغيرهم من الشعراء الصوفية متأثرين بأسلوب القرآن الكريم ومعانيه، ويتجلى تأثيرهم فيما يسميه علماء البلاغة بـ"الاقتباس" وقد عرّفه الرازي بقوله: «هو أن تدرج كلمة من القرآن الكريم أو آية منه في الكلام تزيينا لنظامه وتضحيما لشأنه كقول الإمام ابن منصور عبد القادر التميمي البغدادي:

أَبَشِّرْ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ إِنَّ يَنْتَهُوا يَغْفِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»⁸.

والاقتباس هو كذلك «أن يضمّن المتكلم منثورة أو منظومة، شيئا من القرآن الكريم أو الحديث على وجه لا يشعر بأنه منهما»⁹.

فالاقتباس هو نوع من الأسلوب الذي يعرف عند النقاد المحدثين بأسلوب التناس، وهو أنّ «النص المعين المقروء، لا يمكن فهمه دون الرجوع إلى عشرات النصوص التي سبقته وأسهمت في خلقه وتكوينه»¹⁰. من خلال هذا التعريف يتضح لنا أن الأديب كيفما كانت قدرته الإبداعية متأثر بمن سبقه، ومؤثر فيمن يأتي بعده.

وإذا عدنا إلى دواوين الشعراء الصوفية المغاربة نجدهم متأثرين بغيرهم من الأدباء عامة والشعراء خاصة، ونحاول فيما يأتي أن نبرز الاقتباسات من القرآن الكريم، من ذلك مثلا قول الششتري:

وَلَوْحًا إِذَا لَاحَتْ سَطُورُ كِبَانِنَا لَهُ فِيهِ وَهُوَ اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْأَدْنَى.¹¹

يكنم التناس في قوله (القلم - سطور - اللوح) فهو يدخل في تضمين مع قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾¹².

وقوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾¹³.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن قوله:

وَعَرْشًا وَكُرْسِيًّا وَبُرْجًا وَكُوكَبًا وَفَتْقَ لِأَفْلَاكِ جَوَاهِرُهُ الَّذِي وَحَشَوْا لِجِسْمِ الْكَلِّ فِي بَحْرِهِ عَمَّنَا يُشَكِّلُهُ سِرُّ الْحُرُوفِ بَحْرٌ فِين.¹⁴

يكنم التناس في قوله (عرشا - كرسي - كوكبا - فتق) فهو يدخل في تضمين مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْوَدُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾¹⁵، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾¹⁶، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كُوكَبًا﴾¹⁷، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾¹⁸.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن قول الششتري:

يَعْرُجُ وَالْمِعْرَاجُ مِنْهُ لِدَاتِهِ لِتَطْوِيرِهِ الْعُلُويِّ بِالْوَهْمِ أُسْرِينَا.¹⁹

يكنم التناس في قوله (أسرينا، المعراج) فهو يدخل في تضمين مع قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾²⁰، وقوله أيضا: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾²¹.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم قوله:

تَأْدِبُ بِيَابِ الدَّبْرِ وَاخْلَعِ بِهِ النِّعْلَا وَسَلِّمْ عَلَى الرَّهْبَانِ وَأَحْطُطْ بِهِمْ رَحْلًا.²²

وقوله أيضا:

وَعِنْدَ دُخُولِهِمْ فِي الدَّيْرِ أَلْقُوا عَصَاهُمْ إِذْ أَلْمُوا بِالْجَوَارِ.

كَمَا أَلْقَى الْكَلِيمَ بِهَا عَصَاهُ

وَوَلَّى بِالْمَخَافَةِ لِلْفَرَارِ.²³

يكمن التناس في قوله (اخلع - النعلا - عصا - ألقى) فهو يدخل في تضمين مع قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾²⁴، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾²⁵.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن قول عفيف الدين التلمساني:

تَتَهَدَّمُ الْهَرَمَانِ فِي أَخْبَارِهَا

وَبِنَاءِ عَقْدٍ وَلَاكَ لَمْ يَتَهَدَّمْ

وَكَذَا السَّمَاءُ تَمُورُ مُورًا ، وَالْجَبَا

ل تَسِيرُ سِيرًا ، وَهُوَ لَمْ يَتَلَّمْ

إِنَّ كَانَ دَهْرِي رَاحَ يُظْلِمُنِي بِبُعْدِي

عَنْكَ حَادِثُ صَرْفِ الْمُتَحَكَّمِ

فَعَلَى الْجَوَارِ الْمُنْشِئَاتِ ، وَسِيرَهَا

فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ كَشَفُ تَظْلُمِي.²⁶

يكمن التناس في قوله (الجمال تسير سيرا، الجوار المنشئات في البحر كالأعلام) فهو يدخل في تضمين مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾²⁷، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشِئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾²⁸.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن قول عفيف الدين التلمساني:

وَأَنْ تَدَانِيَتْ مِنْ سُرَادِقِهِمْ

فَأَسْجُدُ لِعِزِّ الْجَمَالِ وَاقْتَرِبْ.²⁹

يكمن التناس في قوله (فأسجد - اقترب) فهو يدخل في تضمين مع قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾³⁰.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن أيضا قوله:

يَرَى بَرْزَخَ الْبَحْرَيْنِ كَوْنًا مَكُونًا

وَمَطْلَعُهُ فِي حَدِّهِ الْمُتَرْتَّبِ.³¹

يكمن التناس في قوله (برزخ - البحرين) فهو يدخل في التضمين مع قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾³².

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم قول شعيب التلمساني:

وَاسْتَجَبَ فِي الْهَوَى دُعَائِي فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ بِالْدُعَاءِ رَبَّ شَقِيًّا.³³

يكمن التناس في قوله (بالدعاء رب شقيا) فهو يدخل في التضمين مع قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا﴾³⁴.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم قوله:

قَدْ فَرَى قَلْبِي الْفِرَاقَ وَحَقًّا

كَانَ يَوْمَ الْفِرَاقِ شَيْئًا فَرِيًّا.³⁵

يكمن التناس في قوله (شيئا فريا) فهو يدخل في التضمين مع قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾³⁶.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم قوله:

وَبَقَابِ قَوْسَيْنِ الَّذِي هُوَ قَدْ دَنَا مِنْ رَبِّهِ ذُو مِرَّةٍ ثُمَّ اسْتَوَى.³⁷

يكمن التناس في قوله (قاب قوسين) فهو يدخل في التضمين مع قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾³⁸.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم قوله أيضا:

تَوْصِيكَ يَا مَنْ حَضَرَ

لَا تَقْرُبِ الشَّجَرَ.

يكمن التناس في قوله (تقرب الشجر) فهو يدخل في التضمين مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾³⁹.

ومن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم قوله أيضاً:

يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ الرَّضَىٰ وَالْعَفْوَ عَنْ
مَا قَدْ مَضَىٰ يَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى.⁴⁰

يكمن التناس في قوله (على العرش استوى) فهو يدخل في التضمن مع قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁴¹.
وقوله أيضاً:

وَتَلَوْا آيَةَ الْوَدَاعِ فَخَرُّوا
حَفِيَّةً الْبَيْنَ سُجَّدًا وَبُكْيَا.⁴²

يكمن التناس في قوله (خروا سجدا وبكيا) فهو يدخل في التضمن مع قوله تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾⁴³.
وقوله أيضاً:

أَنَا شَيْخُ الْغَرَامِ مِنْ يَتَبِعُنِي أَهْدُهُ فِي الْهَوَىٰ صِرَاطًا سَوِيًّا.⁴⁴

يكمن التناس في قوله (صراطا سويًا) فهو يدخل في التضمن مع قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾⁴⁵.
إنّ الاستفادة من النصوص القرآنية وإعادة بعثها من جديد في القصائد الصوفية، إنما هو بعث للقيم و شكل من أشكال الإحياء للدين والفضيلة والصدق في نفوس المسلمين.

2-التناس الشعري:

إنّ المتمعن للقصائد الصوفية يلاحظ أن متنها مزود بذاكرة النصوص الشعرية القديمة التي تفاعل معها الشاعر، ووظفها في نصوصه المقروءة، ومن ثمّ تولدت فاعلية الخلق الشعري، لأن الشعر العربي مصدر للإبداع، به عبّروا عن الوجود الإنساني ومشاعره وكيانه، لذلك راحوا ينهلون من هذا المصدر لما فيه من جمالية، وقوة الإيقاع.
فعند قراءتنا لهذا البيت الشعري لأبي مدين شعيب:

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ
وَأَتْرُكُ قَلْبًا فِي هَوَاكَ يُعَذِّبُ
وَلَكِنْ لِي قَلْبًا تَمَلَّكُهُ الْهَوَىٰ
فَلَا الْعَيْشُ يَهْنَأُ لِي وَلَا الْمَوْتُ أَقْرَبُ.⁴⁶

نكتشف المخزون الشعري لأبي مدين وهو ما يعلن عن تداخل نصي واضح مع نص الشاعر عمرو الوراق:

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ
وَلَكِنَّمَا أَحْيَا بِقَلْبٍ مَرَوِّعٍ
وَحَلَفْتُ قَلْبًا فِي هَوَاكَ يُعَذِّبُ
فَلَا الْعَيْشُ يَصْفُو لِي وَلَا الْمَوْتُ يُقْرَبُ.⁴⁷

ونرى كذلك تضمينات أبي مدين من الشعر العذري لأنه متأثر بإنتاجهم، ومن بين الشعراء الذين تأثر بهم قيس بن الملوح.
وهذا ما يظهر لنا خلال تناسه في قصيدة تذلل في البلدان التي نسجها على طريقة قصيدة "متى يشتفي منك الفؤاد المعذب" لـ"قيس بن الملوح".

يقول أبو مدين شعيب:

وَلَكِنْ لِي قَلْبًا تَمَلَّكُهُ الْهَوَىٰ
كَعَصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلِ يَصُفُّهَا
فَلَا الطِّفْلُ ذُو عَقْلٍ يَحِنُّ لِمَا بَهَا
تَسَمَّيْتُ بِالْمَجْنُونِ مِنْ أَلَمِ الْهَوَىٰ
فِيَا مَعْشَرَ الْعَشَّاقِ مُوتُوا صَبَابَةً
وَصَارَتْ بِي الْأَمْثَالُ فِي الْحَيِّ تُضْرَبُ
كَمَا مَاتَ بِالْهَجْرَانِ قَيْسُ الْمَعَذِّبِ.⁴⁸

فالتداخل النصي واضح مع نص قيس بن الملوح:

فَبَعْدُ وَوَجْدٌ وَاشْتِيَاقٌ وَرَجْفَةٌ
كَعَصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلِ يَزُمُّهَا
فَلَا الطِّفْلُ ذُو عَقْلٍ يَرِقُّ لِمَا بِهَا
وَلَا الطَّيْرُ ذُو رِيشٍ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ.⁴⁹

فأبو مدين نسج قصيدته على مناول قصيدة "فيس بن الملوح" إلا أن الاختلاف يكمن في موضوع قصيدة مجنون ليلي وهو الحب البشري وموضوع قصيدة أبو مدين شعيب هو الحب الإلهي. من تضمينات الششتري قوله:

تُرَكْنَا حُطُوطًا مِنْ حَضِيضٍ لِحَوْظِنَا مَعَ الْمُقْصِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَسْنَى.⁵⁰

عند قراءتنا لهذا البيت نكتشف المخزون الشعري التراثي الصوفي للششتري، وهو ما يبين التداخل النص مع نص ابن الفارض. وَأَمْسٍ خُلِيَا مِنْ حُطُوطِكَ وَأَسْمٍ عَنْ حَضِيضِكَ وَأُنْبِتُ بَعْدَ ذَلِكَ تُنْبِتُ.⁵¹

فالششتري يتناص مع هذا البيت تناصاً إشارياً، ويحاكي لغته من حيث الألفاظ ودلالاتها، فاستحضر (حُطُوطًا - حَضِيض) والتي تقابل ألفاظ ابن الفارض (حُطُوطُكَ - حَضِيضُكَ). فالتداخل النصي بين البيتين واضح، إضافة إلى دلالتها واحدة، وهي تحذير المريد من حظوظ النفس، ومسايرتها ومتابعة الشهوات التي تحيل إلى الحضيض. من تناس الششتري يقول وصفا للخمرة الإلهية:

هَلْ لَكُمْ فِي شُرْبِ صَهْبًا مَرَجَتْ
وَلَهَا عُزْفٌ إِذَا مَا اسْتَشْنَقَتْ
وَإِذَا عَايَنَتَهَا فِي كَأْسِهَا
لَسْتُ تَدْرِي الْكَأْسَ مِنْ حَمَرَتِهَا قَدْ
فَكَأَنَّ الشَّمْسَ خُلَّتْ قَمَرًا
فَهِيَ مَا بَيْنَ إِصْفَرَارٍ وَأُحْمَرٍّ
أَطْرَبَتْ فِي دَنِّهَا قَبْلَ انْتِشَارِ
ذَهَبِ الْعَقْلِ وَلَمْ يَبْقَ اسْتِتَارٌ
صِفَا الْكَلِّ صَفَاءً إِذْ تُدَارُ
وَكَأَنَّ الثُّورَ لِلنُّورِ قَرَارَ.⁵²

إلى أن يقول:

أُحْرِقَتْ أَحْشَاؤُهُ ثُمَّ اغْتَدَى
يَكْشِفَ الْأَسْرَارَ مَخْلُوعِ الْعِدَارِ.⁵³

فالتداخل النصي واضح في قصيدة مدعي الحب:

صَفْرَاءُ لَا تَنْزُلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتَهَا
قَامَتْ بِإِبْرَيقِهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ قِمِّ الْإِبْرِيقِ صَافِيَةً
رَقَّتْ فِي الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا
فَلَوْ مَرَجَتْ بِهَا نُورًا لِمَارَجَهَا
لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مُسْتَهَ سَرَاءُ
فَلَاخَ مِنْ وُجُودِهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
لَطَافَةٍ وَخَفٍ عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
حَتَّى تُولَدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ.⁵⁴

كلاهما يصف الخمرة لوها وصفاءها، وما تتركه في شاربها.

فالتناص هنا بين النصين متوافق من حيث البنية اللفظية في وصف الخمرة ومتخالف من ناحية البنية الدلالية، لأن خمرة أبي نواس رمزٌ للمتعة الكاملة والجمال والعظمة، فغرضه هو إمتاع النفس بالخمرة، أما الششتري فالخمرة عنده رمز للانتشاء الروحي، فهي شراب الحبين.

على العموم فإن نصوص الشعراء الصوفية المغاربة تؤكد لنا بعدهم الثقافي وتواصلهم مع مختلف النصوص العربية لإعطاء قيمة لقصائدهم الصوفية.

3-التناس التاريخي:

استلهم الشعراء الصوفية المغاربة في قصائدهم كثيراً من موروّثهم التاريخي العربي والإسلامي، وهذا بذكر شخصيات تاريخية مشهورة، تعطي دلالات تسند المعنى الذي يريد التعبير عنه.

وقد تنوعت أشكال التناس عند الشعراء الصوفية المغاربة فقد يكون من التاريخ الأدبي أو التاريخ الإسلامي أو الموروث الثقافي، ومن أمثلة ذلك قول الششتري:

وَذَوْقٌ لِلْحَلَاजِ طَعْمٌ إِتِّحَادِهِ فَقَالَ أَنَا مَا لَا يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى
فَقِيلَ لَهُ إِرْجِعْ عَنْ مَقَالِكَ قَالَ لَا شَرِبْتُ مُدَامًا كُلُّ مَنْ ذَاقَهَا غَنَى
وَأَنْطَلَقَ لِلشَّبِّ لِي بِالْوَحْدَةِ الَّتِي أَشَارُ بِهَا لَمَّا مُجَا عِنْدَهُ الْكُونَا
وَكَانَ لِذَاتِ التَفَرُّى مُوَلَّهَا يَخَاطَبُ بِالتَّوْحِيدِ صَيَّرُهُ خِدْنَا
وَكَانَ خَطِيْبًا بَيْنَ ذَاتَيْنِ مِنْ يَكُنْ فَقِيرًا يَرِ الْبَحْرَ الَّذِي فِيهِ قَدْ غُصْنَا
وَأُصْمِتُ لِلْحَنِى تَجْرِيدُ خَلْقِهِ مَعَ الْأَمْرِ إِذَا صَارَتْ فَصَاحَتُهُ لَكْنَا.⁵⁵

فالششتري من خلال سرده لأسماء الأعلام الصوفية يحاول الكشف عن جذور المدرسة الصوفية، فتناصه التاريخي يكمن في ذكر أسماء لأعلام التصوف المشهورين.

من أمثلة التناس عند التلمساني قوله:

أَعَنْ دَارَ لَيْلَى بَعْدَمَا بَانَ بِأَنْهَا وَفَاحَ شَدًّا أَنْفَاسَهَا تَحَجَّبُ⁵⁶
وقوله أيضا:

أَعْطَى هَوَى لَيْلَى جَمِيعَ رُسُومِهِ إِلَّا مُنِيرَةَ الَّذِي بِفُؤَادِهِ.⁵⁷
وقوله أيضا:

وَأَيْنَ جَمِيلٍ مِنْ غَرَامِي وَقَدْ غَدَا لَدَيْهِ جَمِيلُ الصَّبْرِ فِي الْحُبِّ يَقْبُحُ.⁵⁸

ففي هذه الأبيات لجأ الشاعر إلى التناس من التاريخ الأدبي مستنداً تعابيره من قصص المحبين الذين اشتهروا بحبهم في مختلف القبائل العربية كجميل ولىلى التي ترمز إلى الوجود المطلق الظاهر في كل شيء المتجلي في كل مظهر.⁵⁹ ومن التناس التاريخ الإسلامي قول عفيف الدين:

هَارُوتُهَا أَضْحَى وَمَارُوتُهَا عِلْمُهُمَا بِالسَّحْرِ لَا يَجْحَدُ.⁶⁰

استلهم عفيف الدين التاريخ الإسلامي وانتقى منه حادثة هاروت وماروت ليعبر بها عن حالته الوجدانية، إذ أن الحادثة أشارت إلى سحر هاروت وماروت وتعليمهما للسحر فإنه كان لغرض صحيح، وهو بيان حقيقة السحر للناس وأنه من فعل الشياطين، وأنه كفر وحرام، وقال بعض أهل العلم أنما نزل لبيان اجتناب السحر لا لبيان فعله.

ومن التناس التاريخي أيضا قول الششتري:

وَجُرْدَ أَمْثَالِ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا وَإِنْدَا أَفْلَاطُونٍ فِي أَمْثَلِ الْحَسَنِى
وَهَامَ أَرْسَطُو حَتَّى مَشَى مِنْ هِيَامِهِ وَبَثَّ الَّذِي أُلْقَى إِلَيْهِ وَمَاضِنَا
وَكَانَ لِذِي الْقَرْنَيْنِ عَوْنًا عَلَى الَّذِي تَبَدَّى لَهُ وَهُوَ الَّذِي طَلَبَ الْعَيْنَا
وَيَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ وَبِالْبَحْثِ غَطَّى الْعَيْنُ إِذْ رَدُّهُ عَيْنَا.⁶¹

فالششتري استمد تناسه عن طريق ذكر أسماء الفلاسفة والذي يدل على عمق ثقافته وفلسفته واحتكاكه بالحضارات الأخرى كحضارة اليونان، فلجوء هذه الشخصيات تدعم منزلته الفكرية والفلسفية. وبهذا يمكن القول بأن التناس ولید التراكمات الثقافية لدى الإنسان وبالتالي فإنه من أهم الدواعي التي شاركت في تثبيت قواعد التناس هي الخلفية الثقافية، والدينية والتاريخية.

قائمة المصادر و المراجع

- ¹ ينظر: ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جهرة اللغة، مؤسسة الحبلی وشركاء للنشر والتوزيع، القاهرة، ج1، 1932، ص103.
- ² ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج7، مادة (نص)، ص ص97-98.
- ³ ينظر: مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، مادة (نصص)، ص 928.
- ⁴ عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشرحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1985، ص320.
- ⁵ - عاطف نصر جودة، شعر عمر بن الفارض، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ص 165.
- ⁶ - محمد بنعمارة، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر (المفاهيم والتجليات)، شركة النشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص 155.
- ⁷ - كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة (قراءة في المكونات والأصول)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 103.
- ⁸ - إنعام فوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغ ة/ البديع والبيان والمعاني، مراجعة أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، عام 1996، ص 194.
- ⁹ - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، جوهر البلاغي في المعاني والبديع، ضبط وتحقيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1999، ص 414.
- ¹⁰ - فاضل تامر، من سلطة النص إلى سلطة القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 48-49.
- ¹¹ - أبو الحسن الششتري، الديوان، حققه وعلق عليه: علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط1، 1960، ص 74.
- ¹² - سورة البروج، الآيات 21-22.
- ¹³ - سورة القلم، الآية 1.
- ¹⁴ - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 74.
- ¹⁵ - سورة البروج، الآيات 14-15-16.
- ¹⁶ - سورة البقرة، الآية 254.
- ¹⁷ - سورة الأنعام، الآية 76.
- ¹⁸ - سورة الأنبياء، الآية 30.
- ¹⁹ - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 74.
- ²⁰ - سورة الإسراء، الآية 01.
- ²¹ - سورة الحديد، الآية 04.
- ²² - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 59.
- ²³ - المصدر نفسه، ص 40.
- ²⁴ - سورة طه، الآية 11.
- ²⁵ - سورة طه، الآيات 17-18-19-20-21.
- ²⁶ - أبو التريغ عفيف الدين التلمساني، الديوان، تحقيق وتعليق د العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 219.

- 27 - سورة الطور، الآيتان 9-10.
- 28 - سورة الرحمن، الآية 24.
- 29 - أبو الربيع عفيف الدين التلمساني، الديوان، ص 98.
- 30 - سورة العلق، الآية 19.
- 31 - أبو الربيع عفيف الدين التلمساني، الديوان، ص 112.
- 32 - سورة الرحمن، الآيتان 19-20.
- 33 - أبو مدين شعيب التلمساني، الديوان، سيدي شعيب أبي مدين بن الحسين الأنصاري، مطبعة الترقى، ط 1، 1937، ص 62.
- 34 - سورة مريم، الآية 4.
- 35 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 62.
- 36 - سورة مريم، الآية 27.
- 37 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 65.
- 38 - سورة الفجر، الآية 9.
- 39 - سورة البقرة، الآية 35.
- 40 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 66.
- 41 - سورة طه، الآية 5.
- 42 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 62.
- 43 - سورة مريم، الآية 58.
- 44 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 62.
- 45 - سورة مريم، الآية 43.
- 46 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 61.
- 47 - يوسف اليوسف، الغزل العذري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1981، ط 2، ص ص 61-62.
- 48 - أبو مدين شعيب، الديوان، ص 61.
- 49 - قيس بن الملوح، مجنون ليلي، الديوان، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، دار مصر للطباعة، القاهرة، ص 21.
- 50 - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 72.
- 51 - عبد الحق الكتاني، المحب المحبوب أو شرح تائية الحراق وابن الفارض في الحب الإلهي، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 2006، ص 66.
- 52 - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص ص 44-45.
- 53 - المصدر نفسه، ص 45.
- 54 - الحسن هاني أبو نواس، الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، 2001، ص 7.
- 55 - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 75.
- 56 - أبو الربيع عفيف الدين التلمساني، الديوان، ص 91.
- 57 - المصدر نفسه، ص 236.
- 58 - نفسه، ص 159.
- 59 - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 81.
- 60 - أبو الربيع عفيف الدين التلمساني، الديوان، ص 230.
- 61 - أبو الحسن الششتري، الديوان، ص 75.